المظاهر التحاوريّة في كتابات الذات

من خلال نموذج "حين كنت رجلًا" لإلهام منصور– مقاربة تداوليّة

*
زينة سعيفان

الملخّص

تعالج هذه الورقة البحثيّة مسألة خطاب كتابات الذات Ecritures du moi من زاوية تداوليّة تحاوريّة Pragmatique Conversationnelle، بحيث ترصد مختلف مظاهر التحاور بين الأصوات في هذا النوع من الخطابات الأدبيّة في ضوء المقاربة التداوليّة، ومن المنحى التحاوريّ بخاصة.

وبما أنّ هذا النصّ المنتمي للنوع السيرذاتيّ هو نصّ واقع على تخوم التخييل السرديّ بشكل أو بآخر، فإنّ للتداوليّة – كمقاربة تعنى بدراسة استعمال اللغة لدى متلفّظ ما– الدور في كشف تقنيّات التلفّظ الموظّفة لخدمة أهداف الكاتب من جهة وقصديّة النص المكتوب من جهة أخرى.

ولا شكّ أنّ دراسة النصّ الأدبيّ دراسة تداوليّة ترمي في خلاصاتها كشف الاستراتيجيّات التداوليّة المعتمدة في الخطاب، وتهدف إلى تحديد آليّات استعمال اللغة.

وتختار هذه الدراسة المنحى التحاوريّ من المقاربة التداوليّة، فتدرس أفعال الكلام المتنوّعة والمحادثة بشكل أساسيّ، بما تعتمده من أسلوب مباشر وحواريّة Dialogisme وتناصّ Intertextualité وتعدّد في الأصوات

*أستاذة محاضرة في الجامعة اللبنانية والجامعة اليسوعية zeinasfn@hotmail.com

Polyphonie، لعلّ هذه المباحث تكون كفيلة في كشف مناحٍ خفيّة في هذا الخطاب وغاياته التواصليّة، ومقاصده الكامنة وراء القول الذي يعتمد العقد السيرذاتيّ وسيلة للتلفّظ.

وتعتمد هذه الدراسة على مدوّنة أدبيّة، هي من نوع كتابات الذات على ما فيها من تداخل بين التخييل السرديّ والكتابة الواقعيّة عن الذات، وعنوانها "حين كنت رجلًا" لإلهام منصور، وهي صادرة عن دار رياض الريّس ٢٠٠٢، لتدرس فيها المباحث التداوليّة التحاوريّة، بناءً على اقتباسات واستشهادات مقتطفة من هذا النصّ، وهي في جميعها تندرج تحت عناوين المباحث التحليليّة المذكورة سابقًا.

الكلمات المفاتيح: التداولية التحاوريّة، المحادثة، فعل الكلام، تعدّد الأصوات، الحواريّة، السيرة، كتابات الذات

مقدّمة

تعالج هذه الورقة خطاب كتابات الذات من وجهة نظر تداوليّة، وتسعى إلى تحديد البعد التداوليّ أي الإنجازيّ والاستعماليّ لهذا الخطاب وفقًا لخصوصيّة النوع الأدبيّ، من خلال رصد التقنيّات الخطابيّة البارزة والمتواترة في مدوّنة منتقاة. ويأتي هذا الطرح في سياق زمنيّ يعود إلى مرحلة معاصرة تُعنى بـ"التداوليّة النصيّة" أو "تداوليّة الخطاب"، وهي مرحلة نقلت خلالها التداوليّةُ النصَّ من الدراسات التي كانت مُنصبّة على المستويين التركيبيّ والدلاليّ إلى المستوى التداوليّ الذي يركّز على استعمالات اللغة في حالة تخاطبيّة معيّنة.

وتكمن أهميّة المنظور التداوليّ في كونه قادرًا على العمل ضمن مسارين: المقاصد واستراتيجيّات الخطاب، وهو بذلك يمكّننا من محاولة فهم مقاصد نصّ السيرة سواء معلنة أم مضمّنة. ومن خلالها يمكننا فهم

تقنيّات الكاتب المتّبعة لإنجاز تلك القصديّة، إذ لكلّ نصّ تقنيّاته، كما أنّ لكلّ كاتب، مهما حاول أن يخفي مقاصده، سلطة على المتلقّي الذي ما عليه سوى تتبّع كلامه، وهي سلطة تمكّنه من تغيير "العالم"، أي التأثير عليه من خلال قول شيء ما في سياق محدّد.

ولتحقيق تلك الغاية، التزمنا منهج التحليل التداوليّ المبنيّ على إجراءات التداوليّة، فرصدنا قواعد الاستعمال "اليوميّ" للغة لدى كاتب خطاب السيرة، وحدّدنا وظائف تلك التقنيّات المعتمدة، وخلصنا إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- هل يسعى إلى إبراز فلسفته الحياتيّة؟
- هل يحاول الكاتب أن يبرّر أقوالًا وأفعالًا سابقة أمام المجتمع؟

ويتيح المنهج التحليلي التداوليّ دراسة كيفيّة اعتماد الناس الأدلّة اللغويّة في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، ويُعنى بكيفيةّ تأويلهم تلك الخطابات والأحاديث، فيقوم بالنظر في الوظيفة الناتجة عن الظاهرة اللغويّة المتواترة في الخطاب، بحيث يرتكز عليها ليحلّل الظاهرة أو القضيّة موضع البحث، ويعتمد ضبط عناصر المتن المدروس من خلال استقراء الحالات السياقيّة، وتجميع الملاحظات وقياس عدد من تلك الحالات للوصول إلى التعميمات.

أمّا أهميّة درس كتابات الذات تداوليًّا فتكمن في قدرة التداوليّة على التمييز بين التبرير والاعتراف والشّهادة، لكون هذه النصوص لا تستمدّ قوّتها من الأدب فحسب، إنّما من موارد أخرى، وهي تحديد كلام الشهادة، وقوّة التزام الشخص المتحدّث، وطبيعة استعماله اللغة.

وفي هذا الإطار تأتي السيرة كخطاب بكونها نموذجًا جيّدًا لتطبيق المنهج التداوليّ بمقارباته وإجراءاته،

إذ إنّ فهم ملفوظاتها يقتضي أن نسند إليها مقاصد، نربطها بدوافع الكاتب وبواعثه للتلفّظ بخطابه، كما نربطها بالمتلقّي الذي يفهمها بناءً على وجود مراجع مشتركة، يعتمد عليها المتكلّم لتبليغ مقاصده.

وإذا كان تحديد التداوليّة يطرح مسائل معقّدة من حيث حدوده وفرضيّاته ومجالاته وأدواته، فإنّ دراسة هذا الحقل في علاقته بالسيرة يطرح مسائل لا تقلّ عن سابقاتها، فالسيرة حقل شديد الثراء لكشف استراتيجيّات خطابيّة ونوايا ومقاصد سياقيّة.

من هنا تتمحور إشكاليّة بحثنا حول اعتراض على اعتماد المنهج التداوليّ مردّه – برأي معارضيه من البنيويّين والأسلوبيّين– إلى التعارض بين الموضوع والمنهج، فمن ناحية يغلب على الدرس التداوليّ الانصراف إلى تحليل الكلام في بعده التواصليّ والإنجازيّ أي في مستوى الاستعمال العاديّ، ومن ناحية أخرى يغلب على الخطاب الأدبيّ أنّ قيمته في ذاته لا في وجوه استعماله.

وقد رأى مؤيّدو هذا التوجّه أنّه على الرغم من توسّع مجال اهتمامات التداوليّة وتطوير مفاهيمها النظريّة وأدواتها التحليليّة لتشمل تحليل الخطاب الأدبيّ، إلّا أنّها غير ملائمة لهذا "الاستعمال" المخصوص للغة. كما كان هناك ثمّة اعتراض على الدرس التداوليّ لكتابات الذات سببه ما فيها من تهجين سرديّ وتراخٍ في حدود الجنس الأدبيّ، بما يشكّل صعوبة في تقريب نصّ أدبيّ مشوب بالتخييل من منهج تداوليّ يدرس الاستعمالات اليوميّة للغة واقعيّة بمرجعيّتها.

إلّا أنّ الدرس التداولي قدّ بيّن مع منغنونو أنّه صالح للدرس الأدبيّ، حتّى أنّ التداوليّة التحاوريّة كشفت خفايا النصّ السيرذاتيّ لأنّها تتتبّع تقنيات استعمال اللغة، فترصد اختلاف لحظة الكتابة عن لحظة التجربة.

وبناءً على هذه الفرضيّة فحصنا طبيعة أفعال الكلام وسائر مظاهر الحواريّة كما وجدناها في المدوّنة المذكورة، بغاية كشف قصديّة هذا الخطاب من خلال السياق، بما يمكّننا من الوصول في ختام البحث إلى رصد التقنيّات

الكتابيّة التحاوريّة المعتمدة كظواهر تلفّظيّة في خطاب السيرة، مراعين معيار التنوّع في الاستشهادات، ممّا يتيحه لنا هذا النصّ من سياقات مترامية ما بين الواقعيّة والتخييل، وما بين التهجين السرديّ والالتزام بالميثاق السيرذاتيّ.

وفي ضوء إشكاليّة البحث التداوليّ التحاوريّ مطبّقًا على السيرة ، تشكّلت لدينا مجموعة من التساؤلات التي نطرحها في ما يلي ساعين إلى الإجابة عنها:

- كيف يمكننا أن نوظِّف التداوليّة التحاوريّة لكشف ملابسات نصّ مشوب بتخييل ملزم لضرورات رتق الذاكرة لحظة السرد المنتمي للنوع السيرذاتيّ؟ ما هي التقنيّات التحاوريّة التي تتواتر لديها؟
- كيف تمكّنت الكاتبة من تسخير التقنيات اللغويّة لتقول ما كان تقصده؟

أمّا أقسام البحث فقد سعينا إلى بنائها طبقًا لترتيب عناصر خطاب كتابات الذات ضمن المقاربة التداوليّة التحاوريّة، محاولين تحليل بعض ما تقدّمه المدوّنة في هذا الإطار من شواهد تفيد في التحليل، وقسّمنا البحث إلى قسمين:

القسم الأوّل: إضاءة على النصّ المدروس "حين كنت رجلًا"

خصّصناه للإضاءة على الخطاب الأدبيّ والسيرة المحلّلة "حين كنت رجلًا" بشكل خاصّ، مسلّطين الضوء على قضايا النوع والكتابة الذاتيّة ما بين الالتزام بالميثاق والتخلّي عنه، وأبرز التقنيات اللغويّة المستعملة كأنماط للتعبير عن المقاصد، لما لها من علاقة بدوافع السيرة وقصديّتها، وبما يمكن تحليله تداوليًا.

ثمّ أسهبنا فيه بعرض الأسس النظريّة للدراسة، فضلًا عن أبرز المفاهيم المعتمدة. وفيه المباحث الآتية:

أ- "حين كنت رجلًا": نبذة

ب–قضايا النوع السيرذاتيّ

ت–"حين كنت رجلًا": محلّة طبقًا للمباحث التداوليّة التحاوريّة

القسم الثاني: مباحث تطبيقيّة في التداوليّة التحاوريّة:

توسّعنا فيه باستعراض المقاربة مطبّقة من خلال مفاهيم تداوليّة إجرائيّة، مستشهدين بما يقدّمه لنا نصّ المدوّنة من أدلّة مرتبطة بالمباحث الفرعيّة للدراسة. وفيه المباحث الآتية:

أ– **أفعال الكلام في "حين كنتُ رجلًا":**

– **أ–١– الأنواع والتصنيفات العامّة**

– **أ–٢– التحليل التداوليّ لأفعال الكلام في "حين كنت رجلًا"**

ب– الحالة التحاوريّة العامّة في "حين كنت رجلًا"

–ب–١– التناصّ في "حين كنتُ رجلًا"

–ب–٢– تعدّد الأصوات في "حين كنتُ رجلًا"

–ب–٣– التساؤلات في "حين كنتُ رجلًا"

القسم الأوّل: إضاءة على النصّ المدروس "حين كنت رجلًا"

أ– "حين كنت رجلًا": نبذة

وعلى صعيد خطاب سيرة "حين كنت رجلًا" فلنحظ تعدّد تمثّلات الحواريّة، فالكاتبة تنطلق في العنوان من تناصّ وحواريّة، وذلك في حديثها عن تكوين نصّها وعنونة مؤلَّفها بكون ذلك جزءًا من العمل السيرذاتيّ، فتقول في المقدّمة عن حوارها مع الروائيّ رشيد الضعيف: "حين خرج رشيد الضعيف على الموضوع الذي كنا نتحاور فيه ليقول: "طالع عبالي أكتب رواية بعنوان: عندما كنت امرأة" توجَّهتُ مباشرة إلى رشيد قائلة: "هذا هو العنوان الذي أبحث عنه للرواية التي أكتب، طبعًا مع فارق واحد هو الفارق بينك وبيني، فيصبح "حين كنت رجلًا". ولا أظن أنَّك كنتَ في يوم من الأيَّام امرأة، لكنّي لا أجزم في ذلك. أنت أدرى بأمورك. على كلّ حال روايتي شارفت على النهاية و "ستضبط" الآن أكثر بسبب هذا العنوان الذي – وكما يُقال في الدارج أتى "حفر وتنزيل". أشكرك". (منصور، ٢٠٠٢، ص ٢٠).

وعلى أساس هذه القرينة السيرذاتيّة، تسرد الكاتبة مسار تحوّلاتها على المستوى الوجوديّ من خلال تمثّلاته الجسديّة والفكريّة والاجتماعيّة، فتسترجع رحلة الذات المتبدّلة عبر المراحل وصولًا إلى حاضر الكاتبة. وجاء هذا النصّ محمّلًا بآراء في مجال حقوق المرأة ونضالها وكرامتها والحديث عن متطلّبتها الأنثويّة بأسلوب سرد يعتمد المراوحة بين ضميرَي الغائب والمتكلّم، فالكاتبة التي تسِم نصّها على الغلاف الخارجيّ "رواية وسيرة ثالثة"، تراوح ما بين لحظة السرد الحاضرة والماضي، من خلال ضميرين وشخصيّتين، هما "هبى" التي كانتها من قبل "حين كانت رجلا" إذ تعتمدها كوسيط تلفظّي، وبين "أنا" التي أصبحتها الكاتبة عليها اليوم في لحظة السرد.

وعن خصوصيّة خطاب هذا النصّ نسلّط الضوء على أبرز تقنيّات الكتابة المرصودة، وفيها نكثّف النظر ضمن متتاليات ومقاطع متلاحقة، ترد بالإجمال في الصفحة الواحدة، لما لذلك من قدرة على رصد الظواهر في الجملة والمقطع والمتتاليات المقطعيّة.

وقد استعملت الكاتبة تقنيّات لغويّة متنوّعة بشكل عفوّي حينًا ومقصود حينًا آخر، لكي تعبّر عن حالات المرأة المتبدّلة في مسارها الجسدي النفسيّ، وتنقل –باللغة– هذا التغيّر الذي عاشته بطريقة فلسفيّة، وتؤكّد مدى قدرتها على إقناع القارئ بالقضيّة التي تتناولها. فحين خلصت من مسيرتها المناضلة أحالتها بحسب العنوان (حين كنت رجلًا)، وعادت اليوم لليوم لتستحضر تلك التجربة بحوارات لا نعرف مدى دقّة نقلها عبر الزمن، معتمدة صيغًا وتقنيات واضحة كالتكرار وأفعال الكلام المصنّفة، والاستشهاد بكبار الفلاسفة في تناصّ واضح، لتنقل محاولتها المستمرة للهروب من ذاتها، وحالة تلبُّسِها الذكورة، ثمّ لتتحدّث اليوم، ومن بُعد، معقِّبة على ما عاشته في الماضي، إذ عادت من جديد لتصبح "إنسى" أي الإنسانة الأنثى.

ب– قضايا النوع السيرذاتيّ

إن كان ثمّة هوّة بين النوع السيرذاتيّ والدرس التداولي من زاوية كون هذا الأخير يدرس اللغة في استعمالاتها الحقيقية، فإنّ مسوّغ الدراسة التداوليّة لهذه النصوص نابع ممّا يطرحه مستوى الجنس الأدبيّ السيرذاتي بكل تدرّجاته، وبما فيه من تهجين سرديّ وتراخٍ في حدود الجنس الأدبيّ ما بين السيرة الذاتية، والتخييل الذاتي، والسيرة التخييلية، وبما تظهره المواثيق أي عقود السيرة الذاتية من التباسات تظهر بوضوح على الغلافات الخارجية للنصوص المنشورة.

وعليه، تمثّل الكتابة عن الذات كخطاب نموذجًا جيّدًا لدرس مباحث التداوليّة بمقاربتها التحاوريّة، إذ انشغل التداوليّون في دراسة آليّات الكشف عن مقاصد النصّ الأدبيّ، ذلك أنّ فهم ملفوظات السيرة يقتضي أن نسند

إليها مقاصد، نربطها بدوافع الكاتب وبواعثه للتلفّظ بخطابه، كما نربطها بالمتلقّي الذي يفهمها بناءً على وجود مراجع مشتركة يعتمدها المتكلّم لتبليغ مقاصده. وبذلك تكتسب المقاربة التحاوريّة أهميّة مفترضة في تحليل هذا النوع من الكتابات، فهي مبنيّة بالأساس على نظريّة أفعال الكلام وما يرتبط بها في المتتاليات الكلاميّة من مظاهر التناصّ وتعدّد الأصوات وكلّ ما في المحادثة.

ت-السيرة محلّة طبقًا للمباحث التداوليّة التحاوريّة

بحسب جينيت يمكّننا التمييز في هذا النوع من المقاربات بين توجّهين أساسيّين: "يعتبر الأوّل أنّه ثمّة أفعال كلام خاصّة بالأدب، ويعتبر الثاني أنّ الخطاب الأدبيّ هو محاكاة لأفعال كلام "جدّية" يتظاهر المؤلّف بالتلفّظ بها"(Genette, 1989, 239)

وفي هذا الإطار نظر دومينيك منغونو في علاقة التخييل بأفعال الكلام (Maingeneau, 2005, 76)، بتساؤل مماثل لما طرحه سيرل عن "الوضع المنطقيّ لخطاب التخييل"، وذلك في مقال نشره عام ١٩٧٥ ويحمل هذا العنوان، وفيه يعتبر سيرل أنّ الحكي التخييليّ Récit Fictif لا يلبّي شروط نجاح تأكيد فعليّ Assertion،

وعليه، يمكننا القول إنّ تحليل النصّ الأدبيّ بناءً على المقاربة التداوليّة التحاوريّة يتطّلب تحديد المظاهر الواردة في النصّ المدوس وأنواعها، ثمّ تحليل البعد التداوليّ أي الإنجازيّ، لنخلص إلى رصد ما يتواتر من استعمالات وآليّات في خطاب هذا النوع من النصوص، بما يشكّله ذلك من تقنيات خطابيّة بارزة وفقًا لخصوصيّة النوع الأدبيّ المشار إليه.

بالعودة إلى مصطلح التداوليّة، فهو ترجمة للمصطلحين (Pragmatic) الإنجليزيّ، و(Pragmatique) الفرنسيّ. وهو المصطلح الذي تعّددت ترجماته إلى العربيّة، بحيث ترجمه منظّرو حقل العلوم الاجتماعيّة إلى

"الذرائعيّة" و"النفعيّة"، أمّا في مجال العلوم اللغويّة فنجده قد ورد على شكل "البراغماتيّة" أو "علم استعمال اللغة" أو "المقاميّة" (يول، ٢٠١٠، ص ١٥)، إلاّ أنّ المصطلح الأكثر استعمالًا هو "التداوليّة". وقد ظهر مصطلح (Pragmatique) للمرّة الأولى من خلال الأصل اليونانيّ "Pragma" الذي يعني: العمل (شارودو ومنغونو،٢٠٠٨، ص٤٤٠)، ومنه اشتُقّت الصفة اليونانيّة Pragmatikos التي تحيل على كلّ ما يتعلّق بمعاني العمل. أمّا دلالاته فقد تطوّرت وتبلورت مع تقدّم الدراسات، وكانت التداوليّة في بداياتها تعني ببساطة ذلك "العلم الذي يعالج علاقة العلامات بمؤوّلاتها" (أرمينكو، ١٩٨٧، ص٤١)، إلاّ أنّه اكتسب أبعادًا أخرى مع تطوّر الدراسات اللغويّة والتيّارات الفلسفيّة التي ألقت بظلالها على العلوم اللغويّة بشكل خاصّ، ومع إضافات الباحثين؛ إذ كان للعديد من المؤسّسين والمنظّرين في المجالات المتقاربة تأثير على تبلور التداوليّة، كذلك لا بدّ من إضافة أثر تشابك الدراسات المتقاطعة والتي تُعنى بتحليل الخطاب وعلم النصّ.

وقد عُني البحث التداوليّ بمهام تحليل استعمالات اللغة، ووصف وظائف الملفوظات، وبيان خصائصها عند التواصل اللغويّ، كما أصبحت التداوليّة تتمتّع بالصبغة التنفيذيّة الإجرائيّة، وصار لديها آليّات واضحة للتحليل بحيث يمكن تطبيقها على الخطاب.

أمّا في ما يتعلّق بمباحث التداوليّة التحاوريّة، فنستعرض في هذا القسم أبرز نقاط التحليل التداوليّ التي تندرج ضمن إطار التداوليّة التحاوريّة، كأفعال الكلام بتفصيلاتها كافّة، والحالة التحاوريّة العامّة من تعدّد الأصوات والاقتباس والمحادثة والأسلوب المباشر ومن حيث الاستشهاد والاعتراض والخطاب المنقول.

في هذا المجال الواسع نبتدئ من أصغر وحدة وأكثرها مباشرة، أي أفعال الكلام، كما ندرس التساؤلات بكونها إحدى تمثّلات التبادل الكلاميّ الغنيّ بأفعال الكلام، والتي تندرج أحيانًا في الحجاج، وبخاصّة حين تطرح أسئلة تقتضي معرفة مسبقة بين المتخاطبين.

وتأتي دراسة تعدّد الأصوات كإحدى أبرز مسائل التداوليّة التحاوريّة لكونها تحيلنا على دراسة تعدّد التبليغ، وهو مفهوم موظّف لتجسيد العلاقة الضمنيّة بين المؤلّف وشخصيّاته والأصوات المجهولة التي تعمل على التصريح بأشياء دون الإعلان عن نفسها

كما ندرس في هذا الإطار التناصّ لكونه من الأدوات المفاهيميّة والإجرائيّة التي لا سبيل للحديث عن تداوليّة خطاب السيرة من دونها، إذ نلمح في تحليلنا خطاب "حين كنت رجلًا" آثار التداخل النصّيّ. ونقوم بذلك من خلال النظر في ألوان العلاقات النصيّة التي عقدتها كاتبة السيرة مع متناصّات أخرى

القسم الثاني: مباحث التداوليّة التحاوريّة:

أ- أفعال الكلام في سيرة "حين كنتُ رجلًا":

كان لفان دايك دور في توسّع التداوليّة لتتبنّى نظريّة عامّة تشتمل على النصوص الأدبيّة والتواصل الأدبيّ(Kerbrat-Orecchioni, 1980,183)، وأصبحت نظريّة الأدب تحتوي على نظريّة في "أفعال الكلام" الأدبيّة أيضًا، وأصبح فهم الخطاب الأدبيّ مرتبطًا بالسياق وبعده التواصليّ. وأدخلت التداوليّة في تحليل الخطاب الأدبيّ الملفوظ الأدبيّ باعتباره "فعل كلام"، بما يمثّل من ملفوظات إنجازيّة Énoncés Performatifs على حدّ قول أوستن، ملفوظات لا تصف أو تمثّل حالات الأشياء والأحداث والأشخاص، وليس لها مرجع خارج العالم اللغويّ في الواقع المعيش، فهي تحيل على معنى الجملة التداوليّ، وتعبّر عن استعمالها من قِبَل المتكلّمين، فالتلفّظ الأدبيّ يمارس قوّته ضمن عدد غير محدّد من السياقات لدى عدد غير محدود من الأشخاص.

وعليه لا بدّ من أن ننطلق من أنّ "الأقوال الصادرة عن المتكلّمين، ضمن وضعيّات محدّدة، تتحوّل إلى

أفعال ذات أبعاد اجتماعيّة." (Kerbrat-Orecchioni, 1980, P.185).

وترجع هذه النظريّة في أوّل عهدها إلى الفلاسفة التحليليّين الإنجليز أمثال جون أوستن (John Austin) وتلميذه جون سيرل (John Searle) اللذَين بيّنا أنّ اللغة ليست بنى ودلالات فقط، بل هي أيضًا أفعال كلام ينجزها المتكلّم ليؤدّي بها أغراضًا، وهو عمل يطمح المتكلّم من خلاله إلى إحداث تغيير معيّن في سلوك المخاطب بالفعل أو بالكلام.

وللنظر في طبيعة علاقة أفعال الكلام بالأدب، سواء أكان تخييليًّا أو غير تخيليّ، نعود إلى ما قاله منغونو في هذا الإطار، إذ اعتبرها "علاقة يمكنها أن تذهب أبعد ممّا أتاحت به التداوليّة من تفكير حول اللغة"، وقال إنّه من الأهميّة بمكان "تحديد خصوصيّة الملفوظات الأدبيّة من حيث هي أفعال كلام." (Maingueneau, 2005, P. 23-24)

بالعودة إلى المفهوم فقد أصبح فعل الكلام Speech Act / Acte de langage نواة مركزيّة في الكثير من الأعمال التداوليّة، وفحواه أنّه "كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ، وفضلًا عن ذلك يُعدّ نشاطًا مادّيًا يتوسّل أفعالًا قوليّة Actes Locutoires تخصّ ردود فعل المتلقّي كالرفض والقبول"[١]، ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلًا تأثيريًّا، أي ذا تأثير في المخاطب، ومن ثمّ إنجاز شيء ما.

أ-١- الأنواع والتصنيفات العامّة

في ما يلي نقوم بعرض المفاهيم التي تُعدّ إجرائيّة لتحليل أفعال الكلام تحليلً تداوليًّا:

---

[١] وقد وردت هذه الفئات تحت مسميّات وترجمات أخرى مثل: الإثباتيّة، والتوجيهيّة، والوعديّة، والتعبيريّة، والتصريحيّة. (شارودو ومنغونو، ٢٠٠٨، ٢١).

من حيث جهود التداوليّين يمكن رصد أنواع أفعال الكلام بحسب السياق والقصديّة، ففي حين يميّز أوستن خمس فئات من أفعال الكلام (بلخير، ٢٠٠٢، ص ٤٥) : الأفعال الحُكميّة Actes Verdictifs: أي تلك الدالّة على الحُكم، والأفعال التمرُّسيّة Actes Exercicifs: التي لها القوّة في فرض واقع جديد وأفعال التكليف Actes Promessifs: وهي أفعال الوعد إذ يلزم المتكلّم بسلسلة أفعال محدّدة والأفعال العرْضيّة Actes Expositifs: وتُعتمد لعرض مفاهيم و أفعال السلوكيّات Actes Comportatifs: وهي ترتبط بردود الفعل تجاه سلوك الآخرين، فإنّ فئات أفعال الكلام لدى سيرل هي خمسة (Searle, ١٩٦٢, P.١٣٥) أفعال تمثيليّة Actes Representatifs تلزم المتكلّم بصدق القضيّة المعبّر عنها، ومن أمثلتها أفعال التقرير والاستنتاج، وأفعال توجيهيّة Actes Directifs تسمّى الطلبيّات، وأفعال التزاميّة Actes Commissifs أو أفعال الوعد Actes Promessifs التي تلزم المتكلّم بالنهوض بسلسلة من الأفعال المستقبليّة، وأفعال تعبيريّة Actes Expressifs تعبّر عن حالة نفسيّة للمتكلّم، وأفعال إعلانيّة Actes Déclaratifs كالإعلام والإخبار والإعلان.

أ-٢- التحليل التداوليّ لأفعال الكلام في سيرة "حين كنت رجلًا"

نظرًا لخصوصيّة الحالة التلفّظيّة في خطاب "حين كنت رجلًا" نرى أنّ أفعال الكلام التي اعتُمدت لغايات إنجازيّة وتأثيريّة كانت تتلاءم مع ما يقتضيه هذا التلفّظ. فالكاتبة التي تتوجّه إلى قارئها حينًا وإلى ماضيها بشخصيّة "هبى" أحيانًا، كانت تراوح بين أفعال كلام إعلانيّة وتعبيريّة، وعرْضيّة إثباتية في كثير من الأحيان؛ فتكثر لديها الصيغ المبنيّة من فعل كلام عرْضيّ يتبعه فعل كلام تعبيريّ، فتقول مكرّرة فعل الكلام: "ما كنت أرفض الإنجاب لأنّني كنت أكره الأطفال" (منصور، ٢٠٠٢، ص١٠٧)، ويليه قولها في المقطع التالي حيث تذهب وراء الحجج المنطقيّة بغية إقناع القارئ: "ما كنت أكره الأطفال ولكن كنت أشعر أنّي لست حرّة كإنسان،

وأَنَّ عليَّ تحقيق حرّيتي أوّلًا إذ كيف لعبد أن ينجب" (ص ١٠٧). وتكرر صيغة النفي في الماضي بأفعال كلام عرْضيّة إثباتيّة، فتقول: "ما كنت أعي.." (ص١٠٧). فالتراكيب من فعليين متتاليين "كنت" و"أشعر– أعي– أرفض– أكره" هي من صيغ أفعال العرض التي تخدم غاية حجاجيّة، إذ تثبت ما يقوله المتكلّم وتجعله مسؤولًا عمّا يستتبعها من إخبار.

تتكرّر هذه الظاهرة في مواضع عدّة، لتصبح تقنيّة سيرذاتيّة معتمدة في سبيل عرض التحوّلات: "أدركتُ، أصبحتُ، قرّرتُ، حوّلَ" (ص ٢٢). بالإضافة إلى الأفعال التعبيريّة المرافقة لحالة التبدّل: "لم أتحمّل، لم أستطع، ارتميتُ، أجهد، أعوِّض" (ص ٢٢). فالقرار والإدراك فعلان إعلانيّان بالإضافة إلى كونهما من أفعال الكلام العرضيّة الإثباتيّة، والقوّة التأثيريّة لهذا الإعلان هي في كونها تحدث توقّعًا معيّنًا لدى القارئ، بحيث ينقطع نمط الأحداث السابق، ويتحوّل مقام التلفّظ إلى وضعيّة جدّية، فيصبح المتلفّظ ومخاطبه في مقام الحاضر الذي يعكس تحوّل الكاتبة المتلفِّظة في السرد الذاتي من الأنا السابقة إلى الأنا الحاضرة بواقع مختلف. فالمتلفّظة تعلن فيه بشكل مباشر رغبة دفينة سابقة لنبذ أنوثتها، وهو ما يقصده عنوان النصّ بأكمله، إذ يعكس في ثناياه تحوّل الكاتبة إلى امرأة حقّة.

وكثيرة هي السياقات التي تصحب فيها الأفعال التعبيريّة الأفعال الإعلانيّة، فتقول الكاتبة: "لم أتحمّل هذا التحوّل الأخير، لم استطع قبوله وقرّرتُ رفض الواقع كلّيًا، وارتميت في أجواء الدرس، أُجهد نفسي فيه كي أُعوّض عن الدونيَّة التي رماني فيها جسدي." (ص ٢٢).

فالفعلان التعبيريّان "لم أتحمّل" ولم "أستطع" المتبوعان بالفعلين الإعلانيّين "قرّرت" و"ارتميت"، غايتهما إظهار التحوُّل في حتميَّته وعبء تقبُّله وقدرته التبديليّة لواقع الفتاة التي كانت قبل القول.

وبفضل قوة الإنجاز التي تبدّل الواقع من خلال أفعال الكلام، فإنَّ الكاتبة تعلن موقفًا من هويتّها السابقة قُبيل

التصالح مع واقعها.

كما يلفت نظرنا في هذه السيرة إلحاح في استعمال أفعال التذكّر والإدراك كتقنيّة تداوليّة لا مفرّ منها في مقام السيرة الذاتيّة، فتقول الكاتبة: "أدركتُ بعد الحيض الأوّل أنّي أصبحتُ إنسى بكلّ معنى الكلمة، لقد حوّلني جسدي طبيعيًّا إلى إنسى، لكن اجتماعيًّا وتقليديًّا كان حوَّلني إلى امرأة" (ص ٢٢) وهي من تكرار الفعل حوّل تظهر الفرق ما بين التحوّل الاجتماعي والتحوّل النفسيّ.

أمّا علاقة الخطاب السيرذاتيّ بالذاكرة، فتظهر من خلال طبيعة أفعال الكلام المستعملة "أدركُ، أذكرُ، أتذكّرُ، أقولُ"، التي ترد حينها مع حسم القدرة على التذكّر وتأكيدها، واحيانًا مع نفي القدرة على التذكُّر وبالتالي نقل الماضي بملفوظات لغة الحاضر ولحظة السرد، على ما بين الزمانين من انقطاع وتبدّل في اللغة التي تعبّر عن تبدّل في فكر الكاتبة.

وفي كلّ الأحوال فإنّ هذه الأفعال تكتسب في هذا المقام وظيفة إعلانيّة بالإضافة إلى الوظيفة العرضيّة والإخباريّة. فتقول في معرض الحديث عن أبيها: "لا أذكر متى خرجت من إنسويّتي، أنا متأكّدة أنّني وُلدت إنسى، جسدي يقول ذلك، الأمر لا يحتاج إلى برهان أو استدلال. متى خرجت من جلدي؟ لا أذكر... لا أذكر..." (ص ٢٢).

إنّ نفي التذكّر في هذا الموضع يصبّ في الغاية الإنجازيّة ذاتها، إذ يؤكّد على ثقب الذاكرة المثقلة بحيث تصبّ أفعال الكلام هذه في بناء سياق تلك التجربة التحويليّة في هويّتها، فتكرار التركيب ذاته منفيًّا "لا أذكر" ثلاث مرّات متتالية هو ظاهرة تداوليّة تفتتح فيها الكاتبة مقاطع تقريريّة خبريّة، أي متتاليات Sequences مستقلّة.

إنّ هذه الأفعال تطرح مسألة صدق هذه الحوارات التي تُنقل مع البعد الزمنيّ، كما تثير مسألة ثقوب ذاكرة السرد

الذاتيّ، لحظة الحديث عن واقع ما قاله لها والدها بحرفيّته، وتشير إلى افتراض مفاده قدرة اللغة على التعبير بملفوظات جديدة مبتكرة، تعبّر عمّا قيل لا كما قيل بحرفيّته، وتمحو من الذاكرة ما لا يندرج لصالح الفكرة من النصّ.

ويُظهِر لنا هذا التحليل أنّنا في مقام لعبة تلفّظيّة، فأفعال الكلام غير متحقّقة من حيث الإنجاز، إنّما من حيث التأثير، وذلك لكونها غير موفقّة من حيث ارتباطها بمعيار الصدق. فالذاكرة الخارقة ليست سوى من باب المغالطات أو الإخفاقات التي تقصّد الكاتب التعبير عنها من خلال أفعال الكلام أو من خلال ما تضمّنه فعل الكلام التأثيريّ المقصود.

أمّا علاقة "هبى" بوالديها بما يمثّلانه من صوت المجتمع فيتجلّى من خلال تقنية استعمال أفعال الكلام التوجيهيّة لتوضيح علاقة الكاتبة بأهلها. بحيث تظهر الفتاة وكأنّها منفّذ لأوامر سلطة المجتمع من غير تفاعل أو ردود كلاميّة، فالأب يتوجّه إلى "هبى" بفعل توجيهيّ مكرّر طالبًا، ملتمّسًا، متمنّيًا وآمرًا في بعض الأحيان، ويقول: "جلّسي ضهرك وإلّا تصابين بالحدب، حاولي أن تردّي دائما كتفيك إلى الوراء". (ص ٢٢).

ولا تترك الكاتبة وسيلة تأثيريّة من باب الوعد والتهديد إلاّ ووضعتها على لسان الوالدين لتصل الكاتبة في خاتمة الخطاب إلى تحقّق هدفها التواصليّ، إذ أوحت غير مرّة بقسوة نصح الوالدين، فقالت في سياق حديثها عن فحص الأب نموّ ثدييها في مرحلة بلوغها: " لا تخافي، الأمر طبيعي". (ص ١٠٩).

وكانت حواراتها مع والدها دليلًا على غياب مبدأ التبادل الكلامي إنّما تلقّي أفعال الكلام التوجيهيّة بامتياز:

"كان يقول لي:

- جسدك يرفض العلاج لأنّه ليس بحاجة الى علاج.
- لكن لماذا يقوم بردّة فعل عكسيّة؟ أسأله.

- هل تريدين فعلًا طفلًا؟
- ماذا تقصد، وما علاقة إرادتي بالموضوع؟
- تابعي ما يطلبه منك الطبيب الآن وسنرى لاحقًا. أعيدي الفحص كما طلب منك... على كلّ حال أنا لست مقتنعًا بكلّ ما يحصل... لكن تابعي، سنرى لاحقًا".(ص ١١٠).

ب- الحالة التحاوريّة العامّة في سيرة "حين كنت رجلا"

يقول كليرك في فصل عنوانه "كيف نحلّل السيرة؟" أنّها "جنس حواريّ لكون الكتابة عن الذات تدفع الكتّاب بالضرورة إلى التفكير في ظروف خطابهم وفي طرح التساؤلات الآتية على أنفسهم: هل يجب أن نقول كلّ شي؟ وبأيّ طريقة؟". (Clerc, ٢٠٠١, P.٧٧)

ومن خلال هذين التساؤلين يعيش الكتّاب حالة من الحوار مع الذات أو مع نصوص أخرى، ممّا يزيد من مستويات التبادل داخل الخطاب، وضمن المقاطع السرديّة فيه. والسبب المضاعف للحالة التحواريّة هو التباعد الزمنيّ بين أحداث تضع الكاتب بمنظور المعلّق والمحلّل والشارح لنفسه، وذلك من غير إقصاء للقارئ. من هنا يرى كليرك أنّ الكتابة عن الذات هي "ربّما أكثر الأجناس حواريّة."(Clerc, 2001, P. 88)

وتظهر الحالة التحاوريّة بتقنيات ترصد فيها المقاربة التحاورية في التداولية، أبروها الحواريّة بمفهومها الباختينيّ وما نتج عنها من دراسات تعّدد الأصوات داخل الخطاب الواحد وذلك في التصوّر اللسانيّ للغة حديثا، ذلك أنَّ التداولية أعادت النظر بوحدة المتكلّم في الخطاب، الذي أصبح منذ ذلك الحين كمفترق للأصوات.

فبعد أن أكّد تودوروف في مقدّمة كتابه **ميخائيل باختين ومبدأ الحواريّة** على أنّ أهمّ مظهر من مظاهر التلفّظ

والأكثر إهمالًا هو حواريّته (Todorov, 1881, P. 295)، تداخل مفهوم الحواريّة مع مفهوم تعدّد الأصوات باعتباره خاصّيّة مميّزة للرواية، وكانت نظريّة باختين الإجراء الأساس لتحليل الأقوال الصادرة عن مختلف المتلفّظين، حيث صار التفاعل الكلاميّ محور أيّ نظريّة تتناول اللغة كموضوع للدراسة. فهو يرى أنّ التعبير ليس فعلًا فرديًّا، إنّما هو نشاط اجتماعيّ حدّدته مجموعة من العلاقات الحواريّة.

ب -٢- التناصّ في سيرة "حين كنتُ رجلًا"

تحمّل الكاتبة خطابها تناصّا واضحًا ودوافع كتابيّة مفادها تبنّي أفكار فلاسفة معيّنين.

فالنصّ يكاد لا يخلو من إحالات لها وظيفتها التداوليّة، وهو نصّ محمّل بالمرجعيّات الأيديولوجيّة. كما تسعى الكاتبة الى تأسيس قول مغاير عن الخطاب الأبوي الذكوري، شبهته بالتركيب الهيغلي الجديد الناتج من الشيء ونقيضه، بما فيه من خلاصة جدلهما، لكنه مختلف عنهما. لتصل في المحصّلة إلى اقتراح بديل للفظ "إمرأة" وهذا البديل هو "إنسى" بما يشبه صرفيًّا "أُنثى" مستوحى دلاليًّا من "إنسان"، لأنَّ حال التنكير تشمل المرأة بوصفها تأنيثًا للفظ "مرء" وذلك في محاولة تصحيحيّة ثوريّة لمفهوم المرأة بمقابل مفهوم الرجل.

وتنطلق هذه السيرة في من خلال طفولتها وصباها قبل التحوّل الوجوديّ الفكريّ الذي حدث في حياتها، لتكون شرارة انطلاق نصّ سيرذاتيّ يتميّز بخصوصيّة ميثاقه، واشتغال الكاتبة تجريبيًّا للوصول إلى نوع جديد من تنويعات الكتابة السيرذاتيّة، فقد قدّمت سيرة حقيقيّة من خلال بناء خطاب يضع مسافة بينها وبين كتابة السيرة التقليديّة.

وتبدو تلك الأفكار ذات أولويّة قصوى في هذا الخطاب، فتتجلّى الحواريّة فيه من خلال التناصّ الذي يُعرّف بأنّه "العلاقة التي تربط النصّ بنصّ آخر"، وهي تؤدّي دورًا لا شكّ فيه في سرد الذات. ومن المقاطع

التي تستشهد بها الكاتبة ما يعود إلى التراث النسويّ، إذ يبدو النصّ مليئًا بالأفكار النسويّة، وخطابها مليء بمقولات تدلّ على معرفتها الفكريّة والفلسفيّة. وفي ختام سيرتها تقول عن مراحل حياتها: "مع نهاية القول الذكوريّ كما رأينا ربّما نكون قد وصلنا إلى مرحلة التوليف بحسب التعبير الهيغليّ." (منصور، ص ٢٠٨).

وفي حجاجها تستشهد بقول فلسفيّ لفوكو فتقول: "ونجد مثلًا ان فوكو يتصوّر طباق العقل L'autre de la raison كنبع مجهول تقوم بواسطته السلطة في التفاعلات الجسديّة، بينما نجد أنّ هايدغر الأقلّ أنوثة من فوكو يعتبر أنَّ طباق العقل قوّة أصليّة مجهولة تتحدّد بانسياب الزمان." (ص ٢٠٨).

وهي تتوسّل هذه التقنيّة للتأثير في القارئ من خلال نصّ حافل بالمواقف النقديّة وظاهرة متعدّدة الأصوات.

ب-٢- تعدّد الأصوات في سيرة "حين كنتُ رجلًا"

الحوار باعتباره تعدّدًا للأصوات متحقّق في مستوى العلاقة بين النصّ الحاضر والنصوص الغائبة، أو بين ملفوظ الكاتبة وملفوظات غيرها، أو بين آراء الكاتبة الحالية وآرائها السابقة. وهذا الحوار لا يعني مجرّد تداخل بين النصوص أو الأصوات، بل هو أشكال حضور الآخر في خطاب المتكلّم، لا صوتًا فحسب بل وعيًا إيديولوجيا أيضًا، ونذكر منها على سبيل المثال الخطاب المنقول[٢] Discours Rapporté .

ويُعتبر تعدّد الأصوات أحد أبرز المظاهر والأنماط التلفّظيّة والتحاوريّة التي تسهم في عقد المتخاطبين وعقد

٢ورد بترجمة أخرى وهي الخطاب المرويّ. وتعالج إشكاليّة الخطاب المنقول الطرق المتنوّعة المعتمدة في الخطاب لتمثيل الكلام المسند لمصادر مباينة للمتلفّظ. (منغونو، ٢٠٠٨، ص ٤٠).

القراءة في السيرة الذاتيّة.[٣] كما يُعد اعتماد القوسين تقنيّة تحاوريّة واضحة اعتمدتها الكاتبة في سيرتها هذه، فلجأت إلى هذه التقنيّة للتمييز بين لحظات التلفّظ ومستوياته وبخاصّة في الحوارات، بما يوحي بـ "تلفّظ ضمن تلفّظ"، كلّما أشارت إلى رأي قديم من آرائها قبل أن تصبح "إنسى" اعتمدت القوسين، بما يشير إلى تغيّر مراتب المتلفّظين قربًا وبعدًا. وتتقرّب الكاتبة من المتلقّي الخارجيّ أي القارئ، وتبتعد عن المتلقّي الداخليّ كالشخصيّات التي تحاورها من أمّ وأب وطبيب وذاتها السابقة مستعينة بالقوسين أحيانًا، في غاية تواصليّة مفادها خصوصيّة القول والعلاقة بين الطرفين العائليين.

ومن مظاهر تعدّد الأصوات الحوار والأسلوب المباشر بما يعكس جدل النقاشات الداخلية في النصّ، فالأسلوب المباشر والتعليق النقديّ أو النظرة التعقيبيّة التحليلّية هي سمات تطبع نصّ إلهام منصور. والكاتبة تفكّر في الطريقة الأكثر مصداقيّة التي تريد أن تظهر بها أمام الجمهور، وهي تهدف إلى تحقيق شفافية سيريّة لا تقوم فقط على تقديم عرض تلقائيّ من غير عمق حقيقيّ للأحداث، ومن دون أي ربط لها بالسرد، بل أوجدت وسيطًا تلفّظيًّا في مرحلة من مراحل حياتها السابقة وهي "هبى" لكي تضع على لسانها صوتًا من الأصوات.

٣ يفترض مفهوم العقد مسبقًا أنّ الأفراد المنتمين لسلك واحد من الممارسات الاجتماعيّة قادرون على الاتّفاق على التصوّرات اللغويّة لهذه الممارسات. وإنّ عقد الاتّصال يتوفّر على بُعدين :

– البُعد المقاميّ، ويطابقه عقد التخاطب Contrat d'échange الذي يجيب عن أسئلة من قبيل: نحن هنا لنقول ماذا؟ لأداء أيّ دور؟ وهذا يتعلّق بالهوّيات الاجتماعيّة (تلميذ، أستاذ...)،

– البُعد الاتّصاليّ، ويطابقه عقد الكلام Contrat de parole الذي يُعنى بالسلوكّيات الخطابيّة المنتظرة بالنظر إلى طبيعة عقد الاتّصال (الأستاذ من حقّه أن يسأل، والتلاميذ مجبرون على الإجابة.) (منغونو، ٢٠٠٨، ٣٠).

ففي طريقها لتصوير استلاب "هبى" وشعورها بالكره تجاه نفسها يرافق ذلك نموّها الجسدي كأنثى، نقلته الكاتبة في الحوارات والتبادلات الكلامية المباشرة وغير المباشرة، ومن المشاهد التي تظهر هبى كفرد رأيه مغيّب وعن كونها أداة للإنجاب نذكر:

"كانوا يسألون: "هل من مشكلة؟ لماذا لا تستشيران طبيبًا؟".

والدي كان يقول حين يسأله أحدهم عن الموضوع: بعد بكّير، هبى لا زالت صغيرة".

"ومتى تنهين دراستك؟" كنت أُسأل حين أجيب بأنّنا سننجب طفلًا حين أنهي دراستي." (منصور، ص ١٠٦).

وهنا نلحظ صوت "هبى" كوسيط تلفّظي لاستحضار حوارات سابقة، ولا نجد لهذا الصوت أي حضور أو رأي سوى شعوره الدائم بالرفض تجاه الذات والآخر".

وتقول معقّبة في لحظة الكتابة الحاليّة بالقول: " صحيح اني كنت قد بدأت العلاج لكنّي بدأته غصًبا عنّي، كنت في داخلي أرفضه لأنّني كنت أرفض ما سينتج عنه إن نجح، أي إنجاب الأولاد." (ص ١٠٧).

"هبى" التي لا صوت لها في تلك المرحلة العمريّة لم تكن لتتفاعل ضمن التبادلات الكلاميّة بشكل كبير، إلّا أنّ الراوية المتلفّظة هي التي تردّ بتعليقات متأخّرة في الزمان: "أعرف أنّ أمّي كانت منسجمة تمامًا مع الدور الذي خصّها به المجتمع، لم تكن تعاني، كانت تعرف جيّدًا كيف تربّي البنات وكيف تحافظ على البنات." (ص ٢٠).

كما يتّضح أيضًا غياب صوت هبى في نقاشها مع أمّها بخصوص موعد الزواج: "كانت والدتي مستعجلة وتسألني من وقت لآخر عن موعد الزواج: "لماذا التأخير؟ بدأ الناس يتساءلون. بماذا أجيبهم؟" (ص ٦٠).

ب- ٣- التساؤلات في سيرة "حين كنتُ رجلًا"

التساؤلات فعل كلام غير مباشر يخرج إلى أغراض أبعد من التساؤل وتكون وظيفتها التأثيريّة حثّ القراء على البحث عن إجابة قد تكون محسومة في نيّة الكاتبة. لذلك غالبًا ما نجد في هذه السيرة سعيًا إلى رتق ثقوب الذاكرة، فتقول: "هل كان هو الحادث الذي بدأت به ومعه أتحوّل إلى الرجولة؟" (ص ١٠).

كما نجد تساؤلات هدفها نقل إيديولوجيا تناصّيّة بلسان فلاسفة، فتقول: "كم من السنين هدرتُ كي أصل بالفعل إلى ما وراء الخير والشر؟ كم أحسد "نيتشه" الذي وصل قبلي إلى تلك القمّة لا تصل إليها أبخرة التلوّث الصاعدة من حيث يعيش الناس الأخلاقيّون المهذّبون الذين ما زالوا يمارسون الخير ويبتعدون عن الشرّ". (ص ٢٠٨).

كما تقول: "نطرح السؤال التالي: كيف تعامل الأنا مع الحواسّ عبر التاريخ وحتّى الآن؟ هذه هو السؤال الذي إن استطعنا الإجابة عنه تمكّنّا بالتالي من معرفة ركائز القول الرجوليّ، ومن ثمّ ما يجب أن تكون ركائز القول "النسويّ"؟. إذا انطلقنا من ضرورة امتلاك الجسد للوصول إلى قول خاصّ، نرى أن الرجل يمتلك جسده لأنّه يمتلك القرار في التقائه بجسد الآخر أي جسد المرأة..." (ص ٢٠٨).

ويكون المخاطب في أحيان كثيرة مجرّد وسيلة أو قناة تواصليّة لطرح تساؤلات الكاتبة الذاتية هي قناة تواصليّة للتعبير عن تسلسل منطقيّ معيّن في حجاجها المعتمد والذي يتّخذ في هذه السيرة طابع الحوار الداخليّ التساؤليّ.

خلاصة

راهنت فرضيّتنا على أنّه يمكن تحديد وظيفة اللغة من وجهة نظرٍ تداوليّة، فسعَينا إلى بيان دور الكفاءة التداوليّة في صنع الخطاب، وتشكيله لغويًّا واختيار استراتيجيّته المفضّلة، وإظهار أساليب الكتّاب ضمن نوع السيرة بكونها جهازًا ميتا– أدبيًّا، أي قالبًا أدبيًا للحديث عن نوع أدبيّ معيّن، بحيث يعرضون مفاهيمهم الأدبيّة من خلال الاستراتيجيّات المعتمدة.

وقد عالجنا مباحث التداوليّة التحاوريّة الملائمة لمعطيات خطاب كتابات الذات، واخترنا نموذجًا تحليليًّا واحدًا، انطلقنا فيه من أهميّة كشف آليّات التداوليّة التحاوريّة المعتمدة وارتباطها مع غايات الكاتب.

وأخضعنا المدوّنة لإجراءات النظريّة التداوليّة بما يساعدنا على فهم التقنيّات الخطابيّة المتواترة في السيرة الذاتيّة، فحدّدنا أنواع أفعال الكلام البارزة، وحلّلناها، وتطرّقنا إلى قدرتها على بناء فعل كلام جامع، وأشرنا إلى وظيفتها من حيث خلق مشهديّة تخييليّة من خلال خطاب واقعيّ بالأساس، وخلصنا إلى تحديد طرق اعتمادها أفعال الكلام لتحقيق غايات إنجازيّة وتأثيريّة بما يقتضيه التلفّظ، وإلى مجالات تعدّد أصنافها بما يقتضيه السياق وبما تتطلّبه غايات الكاتب من حيث استعماله اللغة.

وفي ما يلي عرض لأبرز النتائج:

– يتجلّى نمط التفكير الحجاجيّ من خلال تكرار بعض أفعال الكلام وبخاصّة أثناء تبدّل القناعات وتطوّر المسار الفكريّ.

– تتلاءم مع هذا الغرض أفعال الكلام الإعلانيّة، إذ تُشهد القارئ على إنجازيّة بعض المعطيات ودورها في التأثير في سياق حياة الكاتب، فتقترن بفعل الكلام التعبيريّ من خلال اقتران لحظة التلفّظ بلحظة السرد السابقة،

ومن خلال اقتران الخطاب المسرود بخطاب آخر تعقيبيّ يمثّل آراء الكاتب الحاليّة المرافقة للحظة الكتابة.

– تفيد أفعال الكلام المنفيّة في إنجاز فعل التشكيك بقدرات الذاكرة في السيرة وهي تندرج بذلك تحت قائمة أفعال العرض التي من وظيفتها الإنجازيّة تقرير أمر ما أو إثباته أو نفيه أو التشكيك به.

– تكثر أفعال التذكّر والإدراك والبوح بصيغة الإيجاب والنفي لعلاقة الخطاب كتابة الذات بالذاكرة، والتي تكتسب في هذا المقام وظيفة إعلانيّة الإخباريّة. وفي تلك الحالة، تُظهر تلك الأفعال مسألة صدق القول، التي تُعتبر غير موافقة لمقتضى الحال، والتي بدورها تكشف لنا أنّنا في مقام لعبة تلفّظيّة؛ فهي أفعال كلام غير متحقّقة من حيث الإنجاز، إنّما من حيث التأثير، وذلك لكونها غير موفّقة من حيث ارتباطها بمعيار الصدق. وبالتالي تأتي أفعال الكلام أحيانًا من باب الاستعمال غير الجادّ للغة أو ما يُعرف بالاستعمال التطفّلي، وهو ما يطبع السير بطابع تخييليّ شبيه بوضعيّات التلفّظ في الشعر أو المسرح.

– تكثر الأفعال التي تدلّ على الشكّ والريبة وعدم الدراية، فتكثر بالتالي صيغ النفي والتساؤل والاستفهام البلاغيّ، بما فيها من أفعال كلام عرضيّة متنوّعة ("لم اعد أذكر، لا أعرف")؛ وظيفتها إقناع المتلقّي بواقعيّة ما يُقال الآن عن أمرٍ نعترف بغياب بعض معالمه عن الذهن، فالرجوع إلى الوراء عبر السرد اللاحق يعطي السيرة إمكانيّة إنتاج خطاب نقديّ يكشف الأخطاء المرتكبة في مراحل الشباب، وقد اتّضح لنا ذلك من خلال الخطاب النقديّ والتعقيب على آرائها الماضية.

– يعتمد نصّ السيرة على الجمع ما بين أفعال الكلام الإعلانيّة والتعبيريّة بشكل أساسيّ وقد تبيّن لنا ذلك من خلال إلحاق الكاتبة فعل الكلام العرْضيّ بفعل كلام تعبيريّ، بما يتلاءم مع الاعترافات والغايات التبريريّة والحجاجيّة، ومن باب التعبير بوحًا واعترافًا.

وختام القول فإنّ خطاب "حين كنت رجلًا" هو خطاب حواريّ تقدّمه الكاتبة وفق استراتيجيّة ثنائيّة حاضرة

على الدوام أثناء الكتابة، وهي ثنائية الكتابة في آن عن المعاش والتعليق على العلاقة التي أُقيمت معه أو على النصّ ذاته.

وهنا مكّننا التحليل التداوليّ من التمييز بين أصوات المتلفظيّن في خطاب السيرة المتلفّظ الكامن وراء الكلام والمتكلّم الناطق به، وكذلك بين مختلف المتدخّلين الخارجيّين من جهة أخرى؛ وشهدنا كيف أعطت الكاتبة الكلام لصوت آخر داخل الخطاب، وبيّنّا ذلك من خلال الحوار أو المحادثة أو الأسلوب غير المباشر والخطاب المنقول، كما أوضحنا ذلك أثناء تحليل تجلّيات الأنا وتحديد هويّة المتلفّظ، فميّزنا بين أقوال الكاتبة والأقوال المنقولة وبخاصّة من خلال توضيحات الخطاب المنقول والأسلوب المباشر.

وربطنا ذلك أيضًا بمستوى المعالم التيبوغرافيّة من خلال وضع الأقوال بين مزدوجتين أو كتابتها بخطّ مختلف أو من خلال إيراد بعض المؤشّرات اللغويّة التي تشير إلى أنّ القول المذكور هو لشخص آخر، وتحرّك كتابة هذا النصّ– على الدوام ومع مجرى الخطاب– الكاتبة تجاه نفسه أو تجاه ما تظنّ أنّها تدركه من متطلّبات المتلقّين.

وأوضحنا ذلك من خلال إظهارنا مفاهيم عدّة مفادها وجود تعقيب أو جدل داخليّ كمثل: "لا أذكر"، "لا أعرف"، فضلًا عن التساؤلات. من هنا أيضًا نعيد التأكيد أنّ ميثاق السيرة وميثاق المرجعيّة يقترنان بعرض مفاهيم الكاتبة حول الكتابة والمتلقّين، وهذا ما يمكن تسميته بأفق التوقّع Horizon d’attente؛ أوضحنا كيف أنّ نصّ السيرة يحتوي على الدوام قصديّة التوجّه إلى شخص ما ظاهريًّا أو ضمنيًّا، وذلك من خلال نقل أفكار الآخرين المضمّنة في الخطاب، والتي تظهر على شكل أمثال وحكم وخطابات منقولة، كما تظهر من خلال الآراء التي يوردها الكاتب وإن قام بنقضها حجاجيّا. وبالتالي فالنصّ السيرذاتيّ هو نصّ حواريّ مع المتلقّي

وتجاه الآخر، وهو كذلك يتوجّه إلى مخاطَب يريد أن يقنعه بمعاييره الفنيّة الجماليّة أو ببساطة يتوجّه إلى شخص يفكّر مثله، ويكون التناصّ فيه هو فرصة لتقديم صورة عن الذات خاصّة من خلال الاستشهاد بآراء الآخرين المكرّسة والمقبولة، وهو ما يعطي القارئ فكرة عن مشهد تكوّن بنية الكاتب الفكريّة.

المصادر والمراجع العربيّة

- أرمينكو، فرنسواز (١٩٨٧)، **المقاربة التداوليّة** (ط.١)، تر. سعيد علوش، الدار البيضاء: المؤسّسة الحديثة.
- بلخير، عمر (ديسمبر ٢٠٠٢)، "دراسة بعض المفاهيم الإجرائيّة للتحليل التداوليّ للخطاب، **الملتقى الوطنيّ لتحليل الخطاب**، جامعة تيزي وزو.
- حبّاشة، صابر (حزيران ٢٠١٣)، "**الأسلوبيّة والتداوليّة**"، مجلّة أفق الالكترونيّة تمّ الاسترجاع في (٣-٣-٢٠٢٢ – الساعة ١٢:٠٠) من: www.ofouq.com
- روبول، آن، موشلر، جاك (٢٠٠٣)، **التداوليّة اليوم:** علم جديد في التواصل(ط.١)، تر. سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة. (نُشر العمل الأصليّ ١٩٩٨).
- **معجم تحليل الخطاب**/ إشراف باتريك شارودو ودومينيك منغونو (٢٠٠٨)، تر. عبد القادر المهيري وحمادي صمّود، تونس، المركز الوطنيّ للترجمة، منشورات دار سيناترا. (نُشر العمل الأصليّ ٢٠٠٢)
- منصور، إلهام (٢٠٠٢)، **حين كنت رجلًا** (ط.١)، بيروت: رياض الريّس.
- منغونو، دومينيك (٢٠٠٨)، **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب** (ط.١)، تر.محمّد يحياتن، بيروت، الجزائر: الدار العربيّة للعلوم، منشورات الاختلاف. (نُشر العمل الأصليّ ١٩٩٧).

- يول، جورج (٢٠١٠)، **التداوليّة** (ط.١)، تر. قصيّ العتابي، بيروت، الرباط: الدار العربيّة للعلوم ناشرون، دار الأمان. (نُشر العمل الأصليّ ١٩٩٦).

Références

- Clerc, T. (2001), *Les Ecrits Personnels*, Paris : Hachette.
- Genette, G. (1989), "Le Statut pragmatique De La Fiction Narrative", *Poétique*, (n°78), 1989, pages 237-249. www.fabula.org (Janvier 2013).
- Kerbrat-Orecchioni, C. (1980), *Énonciation de la Subjectivité dans le Langage*, Paris, Armand Colin.
- Maingueneau, D. (2005), *Pragmatique pour Le Discours Litteraire*.
- ———————— . (٢٠٠٧), *L'Énonciation en Linguistique Française*.
- Searle, J. (1969), *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*, Cambridge, University press.
- Todorov, T. (1881), Mickhail Bakhtine : *Le Principe Dialogique*, Paris : Seuil.